.. وما لنا بها حاجة إن لم تفدنا القصائد !

نجيب سعيد باوزير

العبارة التي جعلناها عنوانا لهذه الكلمة هي جزء من بيت شعري في قصيدة قالها الشاعر الراحل الأستاذ محمد عوض باوزير رحمه الله في رثاء أحد الأشخاص من الناس العاديين البسطاء كما هي عادته في (تأميم) أشعاره وجعلها تتناول وتخدم كل فئات الشعب دون أن تكون حكرًا على طائفة أو طبقة أو فئة معينة من علية القوم أو غيرهم . والرثاء من الأغراض الأثيرة عند الشاعر وكأنه كان يجد من خلاله فرصة لتذكر النهاية والاتعاظ بالموت الذي كان يسميه (الواعظ الصامت) استعدادًا لمعانقة التجربة المحتومة على كل حي التي حانت ساعتها بالنسبة لشاعرنا كما يبدو في اللحظات الفاصلة المتأرجحة بين يومين هما الحادي والعشرون والثاني والعشرون من شهر يونيو ٢٠٠٥م . ولعل في هذا استمرارًا حتى عند الموت لرغبة الشاعر في (العبور) من زمن إلى آخر . لقد كان يُمني نفسه بشهود عام ٢٠٠٠م والقرن الحادي والعشرين وكان له ما أراد ، كما تحققت رغبته في العبور من منطقة الظل والنسيان إلى منطقة الشهرة والذكر الحسن من خلال صدور ديوانه " حصاد السنين " قبل أشهر معدودة فقط من وفاته رحمه الله . والذكر كلمة جميلة ترتبط بمعاني روحيه سامية . وقد استعملها الشاعر في قصيدة (الواعظ الصامت) المشار إليها آنفا جاعلا إياها مفتوحة على كل الإيحاءات عندما قال :-

تحدث عنه الناس بالخير فهو في
شمائله قد لازمته المحامدُ
ويكفيه هذا شاهدا بصلاحه
وخير دليل للصلاح المساجدُ
يسير إليها كل يوم وليلة
وقد مات فيها فهو والله عابدُ
ونترك لله العظيم جزاءه
وحسبي جزاءً أن تعم الفوائدُ
من الذكر في هذا القصيد وما لنا
بها حاجة إن لم تفدنا القصائدُ

والمقالة التالية هي عبارة عن تلخيص لمحاضرة كنت قد ألقيتها في ١٣ يناير من عام ٢٠٠٥م أمام جماعة منتدى حسان بن ثابت الشعري بغيل باوزير . ننشرها هنا وفاء وتحية لذكرى الرجل بعد أن أصبح الآن في ذمة الحق الصمد.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

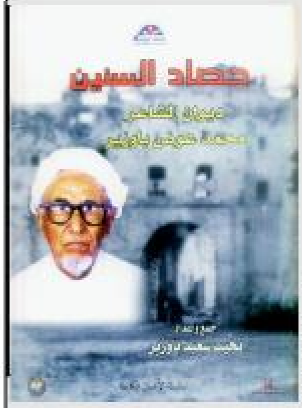

● يأتي صدور ديوان (حصاد السنين) للشاعر محمد عوض باوزير تتويجًا لجهد سنوات من التحضير والعمل من أجل أن يأتي هذا اليوم الذي كان بمثابة حلم نحمد الله أنه قد تحقق أخيرًا . وكان تحقيقه فرحة ألَّلحت صدر الشاعر في شيخوخته بظهور ديوان له يضم زبدة ما كتبه طوال سنوات عديدة من التعامل مع الأوزان والقوافي الذي لم يكن له من غاية سوى إرضاء هواية وموهبة الكتابة ، ولذلك جاء هذا الشعر في مجمله عفويًا وصادقا . كما كان تحقيق ذلك الحلم فرحة لمعد الديوان بأن يرى ثمرة جهده وتعبه الذي لم يكن يهدف من ورائه إلا إلى أن يرفد المكتبة الشعرية في اليمن بخاصة وحضرموت على نحو أخص التي تعاني منذ فترة من ركود وفقر أدبي قد لا يكون ناتجًا إلا عن تخلف حركة النشر وانعدام التشجيع للمواهب بشقيه المادي والمعنوي وليس عن قحط في المواهب نفسها .. أن يرفدها بهذا الإصدار لكي يكون حافزًا وتحريكًا للمياه الراكدة وإثباتا بأنه ليس هناك من مستحيل إذا توفرت الإرادة والنية الصادقة .

● كان معد الديوان منذ بداية تفكيره وتحمسه لنشر ديوان الشاعر منطلقا من اقتناع بأهمية هذا الشعر وبأنه شعر جدير بأن ينشر ويطلع عليه جمهور القراء . فهو شعر يستند إلى موهبة أصيلة وإلى ثقافة تمتح من تراث الشعر العربي في ينابيعه الصافية سواء التراث القديم أو المعاصر . وهو أيضا شعر يتسم بالطابع الشعبي ليس في الجزء العامي منه فقط بل حتى في الجزء الفصيح من خلال بساطة وسلاسة اللغة والألفاظ . وهي معادلة صعبة أن يتم الجمع بين القوة والأصالة وبين السلاسة واللغة الشعبية بمعنى اللغة الفصيحة المفهومة من عامة الناس وليس بمعنى اللغة الدارجة . والنجاح في هذه المعادلة شيء نادر . ولا ندعي أن الشاعر كان نجاحه مطردًا في تحقيق هذه المعادلة فمن طبيعة الأمور أن يحدث تفاوت واختلاف في المستوى ، وهذا يوجد عند كل الشعراء حتى الكبار منهم . ولكن العبرة في كل الأحوال هي بالحصيلة العامة والتيار الغالب الذي تختفي في طياته بعض الشوائب وما يمكن أن يعد من سقط المتاع . والإبداع هو دربة ومران وممارسة مستمرة . ولو لم يكن الشاعر باوزير واثقا من موهبته لما استمر يكتب الشعر طوال عمره بتلك الغزارة إذ لا تمثل الدواوين المنشور إلا نسبة قد لا تصل إلى نصف ما كتبه من قصائد وأشعار مختلفة ، هذا بالرغم من أنه لم يكن يفكر في نشر شعره في ديوان ، ولم يكن الشعر يحتل صدارة اهتماماته بل كان يعتبره خطرات — كما ذكر في إهداء ديوانه إلى القارئ — يكتبها عفوية بين هم الشغل والدار . ولو كان الشاعر أكثر اهتمامًا بشعره وسعيًا إلى التمكن من أدواته الفنية إلى الحد الأقصى لربما كان له شأن آخر في دنيا الشعر .

● إن من بين الأمور التي دفعتني إلى التحمس لنشر ديوان (حصاد السنين) بالإضافة إلى جودة الشعر ومستواه الفني هو المضامين التي يتحدث عنها ويتناولها هذا الشعر ، وهي مضامين تصب في مجملها في خانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا هو أحد الأهداف التي وضعها منتدانا المبارك نصب عينيه عند تأسيسه . والمضمون هو إحدى الإشكاليات التي عادة ما يتم طرحها من قبل النقاد والمهتمين بالشعر . وهناك دعوات تعالت أصواتها منذ فترة تنكر أن يكون للشعر أو للأدب عمومًا رسالة يتوجه بها إلى المجتمع . وتطرح هذه الدعوات أنه لم يعد للشعر أو الأدب من دور يؤديه في نصرة قضايا معينة تخدم المجتمع وتنهض بحياة الشعوب نحو الأفضل وتنتشلها من الأوضاع البائسة التي تعيشها أو التي يراد لها أن تنحدر إليها . وتدعي هذه الأصوات أنه قد آن للشعر أن يتخلى عن هذا الدور لغيره من الوسائل التي تخاطب الجمهور بشكل مباشر وأن ينشغل هو بأن يكون شعرًا وحسب يراد به وجه الفن فقط ، ولا بأس عليه حينئذ أن يبتعد عن أن يكون مفهومًا أو على الأقل قابلاً لأن يتذوقه أولئك المحبون للشعر الذين يرون فيه واحة جميلة يفيئون إلى ظلالها وأصبحوا يصدمون بما تقذف به المطابع كل يوم من ألوان الكتابة المتشحة بالغموض والإبهام بل وأحيانا بالإسفاف والانحدار الأخلاقي التي تسمى شعرًا . ومن أجمل ما قرأته مؤخرًا من الكتابات التي تبحث إشكالية المضمون في الأدب ودوره في المجتمع مقال نشر في مجلة العربي الكويتية عدد مايو ٢٠٠٤م للكاتب الروائي المصري إدوار الخراط بعنوان : هل للأدب جدوى اليوم ؟ ويخلص الكاتب في نهاية المقال إلى القول إن للأدب دوره وله جدواه بطريق غير مباشر في التغييرات الاجتماعية التي تهدف إلى تأكيد القيم الأساسية — الحرية والعدالة والحب والكرامة ونحوها — أي أن الأدب له دور حيوي بمحض وجوده ، بمجرد الكشف عن حقيقة ما للإنسان . فليس مطلوبًا من الأديب أن يكون مجرد واعظ يقوم بالدعوة إلى طراز من طرازات السلوك أو التشكيل الاجتماعي المحدد والمحدود . بل عليه أن يحرص على القيم الجمالية .. حيث إن القيم الجمالية في أي عمل فني جيد تتضمن بالضرورة قيمًا أخلاقية لا بالمعنى التقليدي للكلمة بل بالمعنى الأوسع والأكبر .

● وإذا كنت قد ابتعدت حتى الآن عن ملامسة ديوان (حصاد السنين) فإن ما يشفع لي هو أن هذه المحاضرة هي عبارة عن خواطر من وحي صدور الديوان أكثر مما هي دراسة عن الديوان نفسه إذ إنني سبق أن كتبت دراسة نقدية عن شعر الأستاذ محمد عوض باوزير نشرت أولا في صحيفة المسيلة مع بداية صدورها ثم ضمنتها الكتاب الذي صدر لي بعنوان (في دروب الإبداع) ولا أريد أن أكرر ما قلته في تلك الدراسة بل أحاول في هذا الحيز المتاح أن أثير بعض الملاحظات والقضايا من خلال الديوان . ومن ذلك ما أشرت إليه قبل قليل حول المضمون أو الغائية في الأدب عمومًا و في الشعر بخاصة . وبالنسبة للشاعر باوزير كان الشعر متنفسًا ذاتيًا يبث من خلاله لواعجه وأفكاره ومعاناته خلال حقبة من الزمن عاشها بالتحديد في مدينة عدن . وأزعم أنه كان لدى الشاعر القدر الكافي من البصر والدراية بصنعة الشعر بحيث استطاع أن يبتعد بشعره عن المباشرة والتقريرية التي تسم شعر بعض الشعراء النظامين . ولذلك كانت صيحته المضمونية أقدر على التأثير في المتلقي. ولعل لجوء الشاعر إلى أسلوب السخرية والهجاء خاصة في شعره الذي ينتقد الأوضاع السياسية كان من أهم أدواته الفنية التي خلصت شعره من الترهل والبرود وأكسبته ميزة الحيوية والجاذبية . ومن الأدوات الفنية الأخرى استخدام الوصف والتصوير الحي وهو كثير في شعره ، وهو ما يجعله أي الشاعر جديرًا بتشبيهه بالرسام البارع كما وصفه شقيقه الأديب الأستاذ سعيد عوض باوزير عندما قدم منظومة العادات والتقاليد الغيلية التي نظمها الشاعر باللهجة المحلية وحفظ من خلالها عددًا كبيرًا من الألفاظ المندثرة وخلّد كثيرًا من العادات والمظاهر الشعبية في غيل الخمسينيات وما قبلها .

(البقية ص ١٣)